الفصل الخامس عشر

قال الشيخ : رأيتني في المكتبة الظاهرية فصعدت إلى علية فيها ، ومنها وجدتني في جامع فدخلت المئذنة وصعدتها وعندما بلغت أعلاها وجدتني في بستان ، ويا له من بستان . إيه يا بني ، كيف السبيل إلى وصف ما رأيت ؟ وما هذه الجنة التي وجدتها ؟ إنه ليذكرني بها وصفه لها سبحانه في كتابه العزيز إذ قال : ﴿ وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ، متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ، ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ، ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ﴾ .

لقد جعلت أمشي فيها وأنا من الدهشة والحيرة في الغاية . . أرى الأشجار الباسقة والخضرة النضرة والأرض التي ازينت وأخذت زخرفها . وليس هذا فقط فلقد وجدت هناك ريحاً ، ريح مسك عجيبة جعلت أتشممها وأملأ صدري منها وأنا لا أصدق ، لا أصدق أنني وجدت ريح الجنة . كنت أمشي مردداً الله الله إلى أن وصلت إلى بركة ، بركة ماؤها صاف كأنه القوارير . ولما نظرت في الماء رأيت فيه زنابق ، زنابق عامت أزهارها على الماء وانتصبت سوقها فيه كما رأيت أزهاراً من اللوتس طافية . هل تصدق أنه كان في قاع البركة شيء يتلألأ . . ما هو ؟ لست أدري ، لكنه كان يتلألأ . فهل كان الماء نفسه ، أو أن أحجاراً كريمة كانت في القاع ، أو أن عيناً ساحرة كانت هناك ، عيناً مفتوحة تومض وتشع كنجمة؟ لست أدري . لقد ظللت أحدق إلى الماء وقد أخذتني

غبطة لا توصف . . ثم سمعت أصواتاً ، وكان غناء ، غناء أشبه بغناء حوريات . . ثم نظرت فإذا على منحدر من الأرض فريق من الصبايا ، صبايا صغيرات كواعب ناهدات يرفلن في حلل قشيبة من حرير . . لم يكن عليهن إلا شفوف أزرق وأبيض محلى بنمنمات وتطاريز . كن ينشدن ، ينشدن ماذا ؟ وهل كان بوسعي أن أعلم ؟ كن يغنين حاملات دفوفاً يضربن عليها ومزامير ينفخن فيها . وكانت أنسام تهب ، تصافح وجوههن وتنشر خصلات شعرهن . يا إلهي ، في أي مكان أنا ؟ جعلت أرى وأبكي ، أبكي غبطة وسعادة وسروراً وحبوراً . لقد هبطت المنحدر إليهن وما أن وصلتهن حتى وجدتني على شفير شاطىء ،أجل شاطىء ، وهناك برز البحر الرحيب . هل أصف ذلك البحر ؟ وهل بوسعي أن أصف ذلك البحر ؟ وهل كان البحر بحراً ؟ وهل كان ماؤه ماء ؟ كان يموج يا بني ، بالنور يموج ، بالأضواء يموج ، تنعكس عليه شمس ذهبية فإذا هو يضيء ، يشتعل ، يلتهب . . ثم برزت في وسط البحر جزر ، جزر كتلك التي نسمع عنها في الحكايات . لا ، لم تكن تلك الجزر من صخور ولا رمالها رمالاً . هل سمعت عن المرجان ؟ عن أشجار المرجان وهل قرأت عن اللؤلؤ الخبيء في المحار . . وهل غصْت يوماً إلى قاع البحر لترى ما في هذه القيعان من كنوز ، من لآلىء ، من أزهار ، من أشجار وكهوف وغيران وأسماك ، جيوش أسماك ، قطعان أسماك ، أسماك تضيء كأنها النجوم ، وأسماك لها عيون كالجواهر ، وأسماك لها زعانف كأجنحة الفراشات ، وأسماك لها هيئات تبعث على الهيبة وأسماك جليلة كالتي توحي بها صور الأولياء والقديسين . هل قدر لك يا بني أن ترى يوماً تلك العوالم السحرية الأسطورية التي لا يرقى إلى وصف جمالها بيان ؟ لقد وجدتني أمام هذا البحر الرائع ، بحر لا حدود له ، لا شطآن . . بل إنني مخرته، ركبته ، مشيت عليه وغصت فيه . روحاً كنت ، روحاً أطير بغير جناحين ، وسمكة انقلبت وسمكة أسبح بلا زعانف وبسرعة لا يتصورها خيال . كان لي هناك كل شيء ، كل قوى الكون الخلاقة الخفية . لقد اتحدت بالماء والجزر المرجانية ولآلىء القاع ، وصرت سمكة ، محارة ، مغارة وكهفا . لقد ذبت ، ذوبت في ذلك العالم المدهش الوسيع الرحيب السحري الغامض الذي هو شهوة كل عين ومطلب كل خيال .

وجدتني في الجنة يا بني . لقد ظللت أسبح ، أعوم ، أغوص ، أتقلب في أحضان ذلك العالم البهي الذي برز في تلك الرؤ يا العبقرية . لقد ظهر لي روح الكون الخفي ، ذلك الروح الذي يتبدى في كل جميل ، الزهر والورد والشجر والأغصان والأطيار والماء والساقية والشلال والجبال والسحاب والضباب والنجوم البعيدة في أعاليها . كل هذا صار لي وحظيت به وظفرت . لقد أصبح الكون لي ، بآفاقه ببحاره ، بغاباته ، بجناته ، بربيعه ، بخيراته ، بموسيقاه الخفية هل سمعت يوماً موسيقى الأفلاك يا بني . . هل كتب لك أن تشنف سمعك بتلك الموسيقى العلوية . . موسيقى النجوم ، موسيقى الصمت النجومي الذي يتفجر عن أعجوبة ألحان . . عن معجزة ألحان . لقد ظللت أتنقل بين البر والبحر والغابة والبستان والمرج والساقية والنهر والشلال وأنا لا أصدق . أهتف من قلبي ، من أعماق قلبي الله ، الله ، فإذا الآفاق تردد ندائي صدى عجيباً فيزداد بكائي . لم تكن دموعي دموعاً ، فإن من الدمع ما هو السرور بعينه والحبور نفسه وإذا أنت قد عَبّرت بعبرة عما لا تستطيع ضحكات الحناجر كلها التعبير عنه . هكذا بكيت ، بكيت من الفرح ، من الوصول إلى كعبة الاشراق . لقد تبدت الكعبة هناك أحجاراً ولكن كريمة ، أحجاراً من زمرد وياقوت . ظهرت وكأنها تشتعل ، كأنها تشع بنار خفية . إيه يا بني ، أنا حججت ، حججت ورأيت الكعبة ، لكن كعبتي التي برزت لي في الرؤ يا مشتملة على تلك الحدائق الغلب والبحار السبع والجزر الخيالية والشطآن الذهبية والمروج السندسية والحوريات ذوات الشفوف والألوان ، كعبتي هذه لو رآها إنسان لم يعد إنساناً يا بني ، روحاً صرت هناك . لقد عانقت المطلق ، اللانهاية واللاحدود . سرت حتى دققت أبواب الأبدية فانفتحت فإذا أنا في رحاب الله ، رحاب علوية ، رحاب قدسية ، رحاب ملائكية ، رحاب طهور طهور .

كان يتكلم ووجهه قد تحول ، أجل والله تحول . فالبيان الذي صدر من فيه لم يكن أجمل مما طفا على وجهه من ألق . لقد ضاء محياه . العينان صارتا نجمتين ، والأبعاد التي تحدث عنها شعت في نظرته . لقد وجدتني أمام كعبة كالتي تحدث عنها ، كعبة تجسدت في إنسان ، في مثال إنسان . نوراً صار شيخي ، وظللت شاخص البصر مشدود العينين إليه مأخوذاً مسحوراً وكأن

المقام الذي ارتقى إليه قد سرى أثره إلي فحملني معه وطار بي كما طار هو في السموات العالية ، وجاز بي كما جاز الآفاق اللانهائية . لقد تخشبت ، تخشبت وأنا واقف ، وأخذتني قشعريرة باردة لكنها أشبه بالقشعريرة التي يحسها الانسان وهو واقف تحت شلال ، أجل شلال .

ما الذي حدث لشيخي ؟ لا أدري لقد تحول . لم يعد بشراً من لحم ودم . بشرة وجهه شفت ، رقت ، ضاءت ، شعت ، تجردت من قالب اللحم والعظم . لقد أغمض عينيه وهو ممسك بسبحته يذكر متمتماً مردداً (الله ، الله) . لقد أُخِذ الشيخ إذن ، أخذ إلى الجنة التي ارتقى إليها وهو ما زال واقفاً أمامي . معجزة وقعت ، معجزة حدثت في زمان شحت فيه المعجزات والكرامات .

حين أفاق بدا كما لو أنه انتبه من حلم ، من رؤيا . لقد صوّب إلى عينيه الشعاعيتين ثم قال : التعبير واضح يا بني ، المكتبة إشارة إلى اسمه اسمع العليم ، والعلية فيها إشارة إلى اصطفاء المراد للدخول في سماء العلم اللدني ، والجامع مقام الجمع ، والقبة المضروبة فوقه عادة هي عين الجمع ، فأنت ترى في الجامع كثرة ، ولكن القبة المقوسة إشارة إلى قوس الدائرة التوحيدي ، فالكثرة صاروا وحدة أو واحداً ، أي أن الأعداد أخرجت الواحد الذي كان أساس وجود الأعداد ، وعندما يصل المراد إلى الواحد الذي هو جبار الخواطر يبدأ صعود المئذنة . . وأنت ترى المئذنة طويلة دقيقة أشبه بالعدد واحد بالفعل ، وفي رأسها يقف المؤذن ليعلن : أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله .

وقال الامام البيضاوي إن اسم الله أصله إله فحذفت الهمزة وعوض عنها الألف واللام ، وقال إن الإله في الأصل يقع على كل معبود ثم غلب على المعبود بحق ، واشتقاقه من أَلِه إلاهَة وألوهة وألوهية بمعنى عبد ومنه تأله واستأله .

والواحد هنا يا بني ليس الأحد ، فالأحد منزه عيناً عن أن يكون عين أحد . والواحد المشع عن الأحد هو الذي انتشر في الجهات واتخذ أينيته في الأين وشعت عينه في العين فهو المسمى محمداً وأحمد عليه السلام . . إنه روح

الكون ، لم يكن وكان ، وعندما كان لم يكن كما كان ، فهو مأمور بإذن ربه حين كان الأمر في حكم الطي ، والطي ليس داخلاً في زمان ولا في مكان فمنه عليه السلام بدأت سيرورة الزمان والمكان . هذا الروح الذي قال فيه سبحانه : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ . فالروح هو الأمر ، والأمر كان بتقدير ، والتقدير كان بإذن ومشيئة . فلولا روحه عليه السلام ما كان لأمر الكينونة أن يتم ، فبه بدأ الأمر وتحقق . لقد بُث من الحق وانتشر جهات فكانت الجهات ، ومن مضمونه بثت الأسماء بثاً فكانت أنواراً مساعدة ، ثم تفرقت الأنوار بين نور وظلمة ، وجاء في الحديث : إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره .

فالنور الجامع جامع من حيث بياض النور وظلمة عالم الإمكان . انتشر تحققه في العالمين عن طريق النور الفعال فلا شيء يخرج عن إذن هذا الإذن الإلهي .

لقد خلق هذا الروح من الأصل ، فكان صورة جامعة للصور ، ولهذا أعلن المؤذن أن لا إله إلا الله . وقلنا إن الله أصلها إله والإله ما عبد ، وما عبد كثير ، وما يزال هذا الكثير يعبد . فالكثير تفرقوا شيعاً وكل حزب بما لديهم فرحون . والصورة الجامعة لا تعرف التفرق إذ منها التفرق .

لقد ضرب الله بعصى القدرة فكانت الشيع والأحزاب لإخراج قوى الأسماء ، ولكن الموحد بعد أن يشهد يشهد بأن الله كان ولا شيء معه حتى ولا الروح . فمن هو الروح بالقياس إلى الله ؟

لقد انفردت الأرباب بالمربوبين والآلهة بالمألوهين ، وما الأسماء إلا آلهة تعبد ، وما الكريم إلا بخيل حريص على أن ينعت بالكرم ، ولولا النعت ما خرج عن شحه . فأنت ترى أن العبد بين شح عاجل وشح آجل ولهذا سمي عبداً . أما رابعة فأعلنت أنها لم تعبد الله خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته بل لأنه إله يستحق العبادة . وأنت ترى أن إله رابعة جامع لأنه إله الرحمة ، واسمه الرحمن ، والمشتق الرحيم ، والرحمة أعم ، فإله رابعة جمع في عينه كل آلهة

الأسماء الأخرى إيجابيها وسلبيها ، خيرها وشرها ، جنتها وجحيمها . وليس إلا المحبة طريقاً إلى التحقق من هذا المقام ، وما رفعني إليه إلا حب العلم وقد قال فيه الغزالي إنه أشرف مقام يناله الإنسان . فبالحب وحده يرقى العبد من عبودية الأسماء إلى عبدية الواحد ، فهذا الواحد بسط جناحيه فضم إليه الشارد والوارد ، الأبيض والأسود ، القديم والمحدث ، الإمكان والوجوب . فما خرج من الواحد إلا عن الواحد ، وما صدرت الأعداد إلا من الواحد ثم ارتدت إلى الواحد .

والشمس يا بني تشرق فتبين الدنيا ، ولولا نور الشمس ما رئيت الدنيا . فبالنور رئي الظلام ومن غير النور لا رؤية ولا رؤيا . لقد دارت كؤوس الراح في ذلك المقام الأسنى فشربتُ وسكرتُ بخمر المحبة ورددت اسم الجلالة . وحين عرج به عليه السلام إلى هذا المقام كان قد تجرد بكليته ، فما بقي من الناسوت إلا اللاهوت ، واللاهوت هو هو من حيث العين والعيان للخلق . . فروحه عليه السلام كانت أول مرآة قابلت الوجه الأصيل هناك في المقام العالي . لقد عرف مكانته في الأزل وتأخر عنه جبريل خوفاً من الاحتراق بالأشعة العظيمة والنور المبهر .

لقد تحدثنا من قبل عن المرايا والوجه الأصيل كما تحدثنا عن الواحد الداخل الخارج ، والأعداد التي لا وجود لها بذاتها بل بالواحد . . كما تحدثنا عن الدائرة التي لها ظهر وبطن ، وظهرها بطنها ، وبطنها ظهرها ، كما لو كان الأمر ينقلب آناً فآنا . فالداخل خارج والخارج داخل وهذه لعبة الأسماء المتحققة المستمدة وجوداً من وجودها العيني ووجوداً من وجودها العياني ، وما العيني إلا العياني ظهوراً ، وما العياني إلا العيني تحققاً ، وما العيني إلا إنسان العين ، وما الإنسان إلا العين تحركاً وسكوناً وقياماً وقعوداً . ففي عين الجمع شهد الشاهد أن لا مربوب ولا رب ولا مألوه ولا إله ، فالكل في عين الجمع فانون علموا ذلك أم جهلوا ، وهذا هو معنى الاحتراق على الحقيقة فالنور ليس ناراً تحرق وإنما هو نور يبهر ولهذا جاء في الحديث أن لولا حجب الأنوار والظلمة لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره . فلا بد من الحجب ، ولا بد من التحقق

بمقامات الحجب لبلوغ مأمن مجمع البحرين المؤدي إلى العين التي تكون الشمس التي تطلع من مغرب الجسم الكلي عند قيامة الشاهد .

نحن هنا يا بني في مقام الاصطلام ، في مقام النور الأبهر الذي كشف فانكشف فما رأى المكاشف غير ذاته وذات ذاته فحار في ذاته وفي فناء ذاته وفي بقاء ذاته ، وهذا هو مقام الفناء . . أن تفنى في الله وتقوم بالله قيامتك . فمن لم يعرج به إلى مقام عين التوحيد لن يتحقق من سر هذا الكشف العياني الذي يكون فيه المكاشف غطاء والكاشف سراً تحت الغطاء .

لقد بلغنا فتهنا فحرنا وذبنا ففنينا ثم هتفنا وقد بلغنا حق اليقين سبحانك العز لك والمجد لك والحياة لك فأنت الحي وأنت القيوم وأنت الأول والآخر والظاهر والباطن . فما عام في سفينة الوجود إلا نوح ومن كل زوجين اثنين من أسماء الحي الذي لا يموت .

obeikandl.com